بسم الله الرحمن الرحيم - ثابت عيد - زيورخ في ١٩٩٣/١١/٧

محمد أم جالينوس؟

الوجه المزدوج للطب في الحضارة الإسلامية

بقلم المستشرق الألماني : يوحنا كريستوف بيرجل

ترجمه عن الألمانية وقدم له : ثابت عيد

يهمني أن أشير في هذه المقدمة القصيرة إلى ثلاث نقاط رئيسية تخص: أولا مؤلف هذا البحث، وثانيا تاريخ الطب في الإسلام، وثالثا موضوع الطب النبوي. أما كاتب هذا البحث، فهو الأستاذ الصديق المستشرق الألماني المعروف يوحنا كريستوف بيرجل (Johann Christoph Buergel) الذي يعد من كبار المستشرقين المتخصصين في الطب في الإسلام بصفة عامة، والآداب الطبية عند العرب بصفة خاصة. وقد ألف بيرجل كتابا لا مثيل له، عن الآداب الطبية عند العرب في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، عنوانه: Studien zum aerztlichen Leben und Denken im arabischen Mittelalter وهذا الكتاب الذي يعتبر بحق كنزا علميا ثمينا، لغزارة ما ورد فيه من المعلومات المفيدة، والمراجع القيمة، يعطينا نموذجا مثاليا للإنتاج الهائل للمستشرقين في حقل الدراسات الإسلامية. وبجانب هذا الكتاب، وضع بيرجل مصنفات أخرى عن الطب في الإسلام، منها دراسة عن الموت الظاهري، وأخرى عن المظاهر الدينية والعلمية في الطب العربي القديم، وثالثة عن نقد ابن رشد لجالينوس. كذلك فقد تخصص بيرجل في الأدب العربي والفارسي والتركي والباكستاني، فضلا عن الفلسفة الإسلامية. وقد ترجم بيرجل الكثير من النصوص الفارسية والعربية إلى اللغة الألمانية، وحصل على أكثر من جائزة على هذه الترجمات في ألمانيا وسويسرا. وبلغت أعمال بيرجل أكثر من مائة عمل في مجال التأليف والتحقيق والترجمة، ومازال يواصل عطاءه.

وننتقل إلى الموضوع الثاني من هذه المقدمة، ويخص تاريخ الطب في الإسلام، أو بالأصح تاريخ تأريخ الطب في الإسلام. والواقع أن هذا موضوع يثير لدينا الشجون والأحزان، لأن الخوض فيه يجعلنا نشعر في أعماقنا بالانحطاط الذي يعيش فيه العالم الإسلامي اليوم. وهل هناك انحطاط وتدهور أكثر من عجزنا عن كتابة تاريخ للعلوم في الإسلام؟ وهل يوجد دليل أكثر وضوحا على تخلفنا واضمحلال فكرنا في هذا العصر من الحقيقة المرة والدامغة أن علماء الغرب هم الذين يؤرخون للعلوم في الإسلام؟ وأخيرا هل يوجد جهل مركب - إن شئنا أن نستخدم لغة جالينوس - أكثر من جهلنا أننا نجهل تاريخ العلوم في الإسلام؟ ونجهل العمل الجبار الذي قام به المستشرقون في هذا الحقل؟ ونكتفي هنا بالإشارة إلي أهم كتاب صدر حتي الآن عن تاريخ الطب في الإسلام، وهو كتاب العالم الألماني مانفرد أولمان (Manfred Ullmann)، وعنوانه: "Die Medizin im Islam" (= الطب في الإسلام) (ليدن - كولن ١٩٧٠). وليس هذا الكتاب تاريخا للطب في الإسلام، بقدر ما هو تبويب وفهرسة أهم المؤلفات الطبية التي خلفها العرب منذ ظهور الإسلام، وحتى القرن السابع عشر الميلادي. وقد بذل أولمان مجهودا خارقا، لإخراج هذا الكتاب بصورته الحالية. ويكفي أن نذكر أن فهرس الاختصارات الذي صدر به كتابه، يحتوي على أكثر من ٣٥٠ مرجعا. وتعتبر كتابات العالم الفرنسي لوسيان لوكليرك (L. Leclerc)، والانجليزي براون (E. G. Browne)، من أهم التآليف المبكرة في هذا الموضوع.

أما النقطة الثالثة في تقديمنا لهذا البحث، فتتعلق بما يطلق عليه «الطب النبوي». ونقول بادئ ذي بدء إن معظم ما يُسمى بالطب النبوي لا علاقة له بالطب، ولا صلة له بالنبي. ذلك أن الرسول (ص) لم يترك لنا، إلا عددا قليلا من

النصائح الطبية، ثم جاء أهل الجهل بعد ذلك، وأضافوا إلى هذه النصائح الكثير من التخاريف والتعاويذ والسخافات، وأطلقوا على ذلك «الطب النبوي»! ولم يزدهر الطب النبوي، إلا بعد انقضاء عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. ونحن نواجه هنا أعلى مستويات الانحطاط الذي انتهت إليه حضارة المسلمين. ولا يخرج الأمر عن رغبة البعض في إضفاء صفات خارقة للرسول (ص)، هو أصلا في غنى عنها. بل إن محاولات نسب مثل هذه الصفات الخارقة إلى نبي الإسلام، تسئ إليه، أكثر مما تنفع. وجملة القول إن الله تعالى لم يرسل محمدا (ص) طبيبا، أو مهندسا، أو كيميائيا، ولكن أرسله نبيا هاديا. يقول ابن خلدون في «المقدمة»: «... فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بُعِث، ليعلمنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطب، ولا غيره من العاديات. وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم». وفضلا عن ذلك، فقد عرفنا أن معجزة الرسول (ص) إنما هي القرآن الكريم، وليس شيئا آخر. أما ما تناقلته كتب التاريخ من معجزات منسوبة إلى رسول الإسلام (ص)، فهي معجزات باطلة، لا أساس لها من الصحة. يقول محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» عن دافع بعض المسلمين إلى إثبات خوارق مادية للرسول (ص): «إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء في القرآن عن معجزات مَن سبق محمدا من الرسل، فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة، فصدقوا ما روي منها، وإن لم يرد في القرآن، وظنوا أنها كلما ازداد عددها، كانت أدل على هذا الكمال، وأدعى إلى أن يزداد الناس بالرسالة إيمانا». ونختم هذه المقدمة بذكر مثال لتلك التخاريف التي ألصقت برسول الإسلام (ص) ظلما وبهتانا، تحت اسم «الطب النبوي».وقد ورد هذا المثال في كتاب «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية، حيث يصف حجابا للمريض بالحمى المثلثة، فيقول: «يكتب على ثلاث ورقات لطاف: باسم الله فرت، باسم الله مرت، باسم الله قلت. ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء!!!». هذه التعاويذ والتخاريف والسخافات يروجونها بين الناس باسم الطب النبوي، وهي أكبر جريمة في حق النبي (ص)، وأعظم إساءة لعلم الطب. ولنترك الآن العالِمَ بيرجل يقدم بحثه:

من المرجح أن معظم القراء ينتظرون من بحث يُعالج علمَ الطب في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية أن يقدم في المقام الأول قائمة طويلة بالإنجازات العظيمة التي حققها المسلمون في مجال الطب. ولماذا لا؟ أليس ذلك هو العصر الذي تميزت فيه حضارة الشرق الإسلامي الراقية بنورها الساطع عن العصور الوسطى المظلمة التي عاشها الغرب، وذلك حسب فكرة مبتذلة شائعة في عصرنا هذا؟ وعند تصحيح الأفكار المتداولة، فعادة ما يقترن ذلك بنوع من المبالغة في الاتجاه الآخر. فلا شك أن النظرة إلى الشرق الإسلامي المشوبة بالجهل، والمثقلة بالأحكام المتحيزة، كان ينبغي البدء في تنقيحها أيضا، مثلما تم تنقيح النظرة التمجيدية للعصور الوسطى الأوروبية في عصر الرومانسية. وفي تلك الأثناء أصبح أساتذة دراسات العصور الوسطى مدركين لأهمية تصحيح صورة «العصور الوسطى الأوروبية المظلمة». ويقع الآن على عاتق علماء الدراسات الإسلامية إنجاز المهمة الصعبة والشائكة بمقابلة التمجيد الحماسي للشرق الإسلامي، كما يمارسه بعض الكتاب بطريقة لا تخلو من مهارة(١)، بالفروق الدقيقة الضرورية، وتبيين أن البناء الرائع للحضارة الإسلامية كان مهددا بالانهيار بطريقة خفية منذ البداية. وهذا ما يوضحه بشكل خاص مثال علم الطب، فن الشفاء والمعرفة الطبية في الإسلام. ويعتبر هذا المثال مفيدا جدا من ناحية تاريخ الحضارة. ومن هنا فبدلا من تعديد الإنجازات الطبية الرائعة، سنتحدث عن مأزق الطب في الإسلام، وهو مأزق كان في البداية مخفيا غيرَ ظاهر، ولكنه بدأ يظهر بجلاء ووضوح بعد ذلك، حتى أدى في آخر الأمر إلى انهيار الطب في الإسلام. سنتحدث عن انتشار الطب وانحصاره، عن ازدهاره وانحطاطه الذي غرست بذوره في عصر ازدهاره. وذلك مع الاعتراف بأن هذه هي رؤية العالم الناقد. ولكن أهي أيضا مركزية أوروبية غير جائزة، وحكم على الأمور من خلال المقاييس الأوروبية؟ لا أعتقد ذلك. ذلك لأن مَن ينظر إلى حضارته ودينه نظرة نقدية دقيقة، دون أن يتخلى في ذلك عن تعاطفه وميوله، يحق له أن يستخدم نفس هذا المنهج مع الحضارات الأخرى أيضا.

عندما فتحت الجيوش العربية في القرن السابع الميلادي، في خلال عقود قليلة من الزمان، الممالك المجاورة لجزيرة العرب، وكونوا على أنقاضها امبراطورية إسلامية كبرى، لم يأتِ العرب معهم - باستثناء القرآن، والدين القائم عليه، وكذلك أشعار عظيمة، وعادات وتقاليد بدوية - بأي قيم ثقافية أخرى تستحق الذكر، لا في مجال الفنون، ولا في ميدان العلوم.

ولكن أعجوبة اللغة العربية، التي صارت وعاء للرسالة النبوية الشريفة، كانت أيضا مؤهلة لكي تصبح وسيلة الحضارة الإسلامية. فاللغة العربية - لغة البدو - التي قد برهنت على كفاءتها بطريقة تستحق الاحترام، من خلال الوصف الشعري الدقيق للطبيعة، كانت في طريقها لتكون لغة العلوم التي تعلمها العرب من شعوب الممالك التي فتحوها، من الهند،

والفرس، ولكن أيضا من اليونان الذين كانوا لا يزالون يبدون مقاومة سياسية في الامبراطورية البيزنطية.
وقد استمرت عملية التعليم هذه، أي اقتباس العلوم، واستيعابها، وضمها إلى الثقافة العربية، عدة قرون، وانتهت بأسلمة العلوم. لقد امتلك الإسلام دائما مقدرة عظيمة على استقبال العلوم واقتباسها، ولكن أقوى من مقدرته هذه على استقبال الغريب، وهضمه، كان الإسلام، ومازال، يتميز بقوته على رد واستبعاد كل ما لا يتفق مع جوهره. ذلك أنه لا يوجد بالنسبة للمسلم المتدين، إلا سلطة واحدة في جميع شئون الحياة، هي سلطة البارئ تعالى الذي ظهرت إرادته بصورة نهائية، غير قابلة للتغيير في القرآن الكريم. وبحسب ما ورد في القرآن الكريم، فالله تعالى هو مصدر البُشرى، والهدى، والشريعة، والعلم، والحكمة، والنور. فالمؤمن إذن لا يحتاج في واقع الأمر إلى مصادر أخرى للمعلومات، وفي جميع الأحوال ينبغي أن تنطبق كل المعلومات المستقاة من مصادر أخرى مع تعاليم القرآن. وقد صاغ ذلك الرأي أحد كبار فقهاء العصور الوسطى الإسلامية، بكلمات واضحة، لا تحتمل اللبس، حيث يقول:
«العلم الموروث عن النبي صلعم هو الذي يستحق أن يُسمى علما. وما سواه، إما أن يكون علما، فلا يكون نافعا، وإما ألا يكون علما، وإن سُمي به. ولئن كان علما نافعا، فلابد أن يكون في ميراث محمد صلعم»(٢). وكانت هذه النظرة للعلم لابد أن تؤدي إلى صراعات وصدامات، وذلك في فروع العلم التي كان يتحكم فيها الآخرون، غير المسلمين، ويسيطرون عليها؛ أي في تلك العلوم التي اقتبسها الإسلام من الحضارة اليونانية التي كان ينظر إليها المسلم المتدين على أنها حضارة وثنية قديمة. وقد قاد ذلك إلى السؤال التالي: هل يمكن اعتبار أفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وجالينوس - إن شئنا أن نتحدث عن العلمين الأكثر إثارة للخلاف والجدل: أي الفلسفة والطب - علماء ثقات مستقلين، بجانب الله تعالى، ومحمد (ص)؟ أم فقط إذا ثبتت شرعيتهم من خلال القرآن والسنة النبوية الشريفة؟
إذن فقد أدى هذا، ضمن ما أدى، إلى ذلك الصراع الذي صغناه بعبارة أخرى، فيها شئ من المبالغة، بسؤالنا: محمد أم جالينوس؟ وسوف نضع هذا الصراع محورا لدراستنا، لأن أهميته تتعدى نطاق تاريخ الطب بكثير، حيث يمثل أهمية عامة مميزة لفهم الحضارة الإسلامية. وأود أن أقسم بحثي هذا إلى الأجزاء التالية:
١- استقبال العلوم اليونانية.
٢- عصر ازدهار الطب العربي.
٣- اعتراضات المتدينين تجاه الطب.
٤- نشأة الطب النبوي وأهميته.

١

كان قد مر على وفاة رسول الله (ص) قرابة قرنين من الزمان، عندما بدأت حركة استقبال العلوم اليونانية، ونقلها بقوة ونشاط، في بداية القرن التاسع الميلادي. واستقبال العلوم يعني أولا ترجمة النصوص اليونانية العلمية وتعريبها(٣). وبالطبع كان لهذا المشروع الحضاري أيضا مقدمات. فقد روي أن الأمير الأموي - خالد بن يزيد - اهتم بالكيمياء اليونانية، وترجم بعض النصوص إلى العربية، على سبيل المثال(٤). ولكن هذه المحاولات ظلت مجرد حالات فردية. أما الاستعداد الحقيقي، والرغبة العظيمة، لتشجيع العلوم اليونانية، وتيسيرها للقارئ العربي، فلم يظهرا، إلا مع العباسيين، تلك الأسرة التي حكمت العالم الإسلامي من بغداد من سنة ٧٥٠م حتى سنة ١٢٥٨م. وفي البداية كان تأثير الحضارات القديمة التي ظهرت قبل الإسلام على المسلمين حاسما بصفة عامة. وتروى عن الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥م) حادثة ذات مغزى في هذا السياق. فعندما أصيب بمرض في معدته، ولم يتمكن أطباؤه العرب من علاجه، أحيل إلى الأطباء النساطرة في الأكاديمية الطبية - الفلسفية في جنديسابور الفارسية، وهي أكاديمية أسسها خسرو أنوشروان الساساني سنة ٥٥٥م، أي أن عمرها الوقور كان قد تعدى المائتي سنة في ذلك الوقت(٥).
جاء إلى بغداد رئيس هذه الأكاديمية، جورجس بن جبرائيل بن بختيشوع (وبختيشوع هذا اسم سرياني معناه هبة المسيح)، وعالج المنصور، ومنذ ذلك الوقت مارس أطباء من عائلة بختيشوع مهنة الطب في بغداد لأكثر من مائتي سنة، وكان أغلبهم أطباء الخلفاء. ومن المرجح أن بني بختيشوع قد أشاروا إلى ضرورة تعريب التراث اليوناني، وكانوا أنفسهم

أحسن دعاة لهذه الفكرة من خلال نجاحهم كأطباء. وبالإضافة إلى ذلك فالحاجة إلى أطباء مهرة، ليس فقط في قصور الخلفاء، ولكن أيضا عند الطبقة الوسطى من الملاك، كانت في تزايد مستمر. ذلك أنه مع ترف حياة المدن ونعيمها، ازدادت أيضا الأمراض، مما أدى بدوره إلى تنشيط مهنة الطب وإنعاشها، تماما مثلما لاحظ فيما بعد المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون في تاريخه المشهور لعلم الاجتماع: المقدمة لعلم التاريخ(٦). ولكن كان هناك كذلك - وهذه الملاحظة تطابق إحدى النتائج التي توصل إليها ابن خلدون أيضا - ذلك الفائض الاقتصادي الذي أتاح لأول مرة على الإطلاق الاشتغال بالفنون والعلوم، أي رعاية الثقافة(٧).

أما الخطوة الحاسمة، فقد اتخذت في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) الذي أسس نوعا من الأكاديميات العلمية، سُمي بيت الحكمة، وكان الهدف الرئيسي منه هو نقل التراث الغني للعلوم اليونانية أخيرا إلى اللغة العربية. وتم تعيين أفضل المتخصصين في بيت الحكمة. ومما يُثبت العقلية المتفتحة التي كان المأمون يتمتع بها أن معظم هؤلاء المترجمين كانوا من النصارى. وأرسِل المبعوثون إلى بيزنطة، والامبراطورية البيزنطية، للحصول على أحسن المخطوطات اليونانية. كذلك فقد كان هناك مراسلات شخصية بين الخليفة والامبراطور البيزنطي. وبجانب ذلك فقد استخدم المتوفر من الترجمات السريانية والفارسية عن اليونانية.

وكان حنين بن اسحاق أشهر مترجمي بيت الحكمة، وكان في نفس الوقت طبيبا، وخبيرا بارعا بجالينوس. وكان يُتقن العربية، والفارسية، والسريانية، واليونانية(٨). وفي رسالته التي كتبها إلى أحد أصدقائه العلماء عما يعرفه من أعمال جالينوس المترجمة، وكذلك بعض أعماله غير المترجمة، يذكر حنين ما لا يقل عن مائة وتسعة وعشرين عنوانا، أي أكثر من ربع أعمال الطبيب اليوناني التي تزيد في جملتها على أربعمائة كتاب. وقد نقل حنين بن اسحاق بنفسه مائة من هذه الأعمال إلى العربية، أو السريانية، وأحيانا أيضا إلي كليهما(٩). وبالإضافة إلى هذه الترجمات ألف حنين عددا وفيرا من الكتب، منها كتابان في طب العيون(١٠).

وبالطبع عرف العرب بجانب جالينوس مجموعة أخرى من أطباء اليونان في العصور القديمة والمتأخرة، واهتموا بأعمالهم. ويأتي بقراط في مقدمة هؤلاء الأطباء، حيث ترجم العرب له أكثر من اثنى عشر عملا إلى العربية من أصل حوالي ثلاثين عملا صحت نسبتها إليه(١١). ويأتي بعد ذلك روفس الأفسسي(١٢) الذي اشتهر في المقام الأول من خلال كتابه عن الماليخوليا، وكذلك ديوسقوريدس وكتابه الشامل عن الأدوية(١٣). ومن العصر الهيليني المتأخر كان هناك الطبيبان اوريباسيوس(١٤)، وبولس الأجنطي(١٥) اللذان ترجمت جوامعهما، وقام العرب بتقليدها.

٢

كان هذا هو الأساس الذي بنى عليه الأطباء العرب أعمالهم. والطب العربي لم يكن، بل ولم يشأ أن يكون، شيئا آخر، سوى طب تابع لجالينوس. وكما أن محمدا (ص) قد سُمي في القرآن «خاتم الأنبياء»، فكذلك سُمي جالينوس «خاتم الأطباء». يقول ابن أبي أصيبعة - مؤلف أهم مجموعة ترجمات أطباء أنتجتها العصور الوسطى الإسلامية - في ترجمته لجالينوس: «إن الذي قد علم من حال جالينوس، واشتهرت به المعرفة عند الخاص والعام في كثير من الأمم، أنه كان خاتم الأطباء الكبار المعلمين ... وأنه ليس يُدانيه أحد في صناعة الطب، فضلا عن أن يُساويه ... ولم يجئ بعده من الأطباء، إلا مَن هو دون منزلته، ومتعلم منه»(١٦).

إن النقد الموجه لجالينوس نادر جدا، وإذا ورد على الإطلاق، فهو يتعلق دائما بنقاط محدودة، ويكون مقرونا بأعظم احترام تجاه المعلم(١٧). ففكرة القيام بزلزلة الأركان الرئيسية لنظام الأخلاط، أي نظرية الأخلاط الأربعة، وما يتبعها من الكيفيات، وتقسيمها على فصول السنة الأربعة، ومختلف الأعمار، إلى آخره، إن الرغبة في التشكيك في هذه النظرية ككل، لم تكن لتخطر على بال أحد، ولو حتى من بعيد(١٨). ومن هنا فمساهمة العرب في تاريخ الطب على وجه الإجمال، لا تكمن أيضا في اكتشافات طبية مثيرة، ولكنها تتمثل في حفظ التراث المنقول عن الحضارات القديمة، وكذلك في التقسيم الموسوعي للمادة الطبية، وعرضها بطريقة منظمة.

وعند الحديث عن الطب العربي، يفكر المرء في المقام الأول في أسماء كالرازي(١٩)، وعلي بن عباس المجوسي(٢٠)، وابن

سينا(٢١)، وأبي القاسم الزهراوي(٢٢)، أي في مؤلفي موسوعات طبية ضخمة تم ترجمتها إلى اللغة اللاتينية، وكان لها بعد ذلك أيضا أثرها الملموس على أوروبا لقرون طويلة.

ويبرز التقسيم الواضح والمثير للإعجاب، والعرض الدقيق المتخلص من الملاحق الكثيرة عند جالينوس بالذات، على سبيل المثال من خلال حكم ويلهيلم بوستل Wilhelm Postel عالم اللغات، والمتخصص في شئون الشرق، الذي كان يعمل في خدمة ملك فرنسا، فرانس الأول (١٥١٥ - ١٥٤٧)، حيث دافع عن العرب في الجدال الذي احتدم في ذلك الوقت حول قيمة أعمال كبار العلماء العرب، قائلا: «إن ما تجده عند ابن سينا مشروحا بطريقة واضحة ومقنعة في صفحة أو صفحتين، لا يستطيع جالينوس، بأسلوبه المتكلف، أن ينجزه في خمسة أو ستة مجلدات ضخمة»(٢٤).

ومن المظاهر النموذجية الخاصة لهذه الدقة التي كانت تستهدف التطبيق العملي، التلخيص المجدول لعلم الطب. وأشهر عمل في هذا الفن هو كتاب «تقويم الصحة» للطبيب البغدادي ابن بطلان. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، وعُرف تحت عنوان شبه عربي هو: "Tacuini sanitatis". وفي سنة ١٥٣٣م نشر طبيب من شتراسبورج ترجمة ألمانية لهذا الكتاب. ولعل عنوان هذه الترجمة يمثل هنا روح ذلك العصر، وسعيه لفهم الطب العربي، وأثره البعيد على أوروبا:

«جداول الصحة: أولا عن طريق حفظ الأشياء الستة غير الطبيعية. ثانيا: التشخيص - المعالجة - الراحة. ثالثا: قوانين كل الجداول الأربعة والثمانين الملحقة بآخر الكتاب. ترجمه إلى الألمانية لخدمة العامة دكتور ميخائيل هيرو، طبيب شخصي في شتراسبورج»(٢٥).

ومع ذلك فلا يخلو الأمر من إضافات هامة في مجال المعرفة الطبية(٢٦). ويأتي ذكر علم الصيدلة في المقام الأول هنا. فبحسب الدراسات التي قام بها سيزر دوبلر Caesar Dubler أضاف الأطباء والصيادلة العرب حوالي خمسمائة دواء جديد لما ورثوه عن القدماء(٢٧). كذلك فقد كان هناك إنجازات هامة في ميدان طب العيون، وذلك لأسباب مفهومة: فقد ابتليت مصر ودول أخرى في العالم الإسلامي منذ زمن طويل بأمراض عيون مؤلمة، مثل الرمد الحبيبي على وجه الخصوص. ولكن العرب اقتبسوا في هذا التخصص أيضا النظرية والمصطلحات الأساسية من اليونان(٢٨). وهناك إنجازات أخرى في مجال التشخيص بالتفريق بين الأمراض، أي التفريق بين الأعراض المتشابهة للأمراض. وهكذا اكتشف الطبيب والكيميائي الرازي - الذي كان أحد كبار العلماء العرب على الإطلاق الذين استخدموا المنهج التجريبي في العصور الوسطى الإسلامية - لأول مرة الفرق بين الحصبة والجدري، وخصص لهذا الموضوع بحثا صغيرا يعتبر مرجعا هاما في التراث الطبي. ويكشف هذا البحث عن معرفة الرازي لكتاب «أبيديميا» (= الأوبئة) لبقراط، كما توضح الكلمات التالية:

«في العلامات الدالة على ثوران الجدري والحصبة: تتقدم ثوران الجدري حمى مطبقة، ووجع الظهر، وحكاك الأنف، والتفزع في النوم، وهذه أخص العلامات بكونه لا سيما وجع الظهر مع الحمى، ثم النخس الذي يجده العليل في جميع بدنه، وامتلاء الوجه، وارتداده حينا، واشتعال اللون، وشدة حمرة الوجنتين أخرى، واحمرار العينين، وثقل الجسد كله، وكثرة النملي، العلامات التمطي، والتثاوب، ووجع في الحلق والصدر مع شئ من ضيق النفس والسعلة، وجفوف الفم، وغلظ الريق، وبحة الصوت، والصداع، وثقل الرأس، والقلق، والضجر، والغشي، والكرب. غير أن القلق والغشي والكرب في الحصبة أكثر منه في الجدري، ووجع الظهر بالجدري أخص منه بالحصبة، وسخونة الجسد كله، واشتعال لونه، وبريقه، وحمرته، وتشتد حمرة اللثة خاصة.»(٢٩).

وقد فرق ابن سينا بطريقة مشابهة لأول مرة بين ذات الجنب وذات الرئة(٣٠).

ومن الجدير بالملاحظة أيضا، من وجهة نظري، ذلك الفهم للعلاقة بين النفس والبدن، ولدور الاعتقاد في جميع الأمراض الفسيولوجية، وطرق علاجها. وقد نقل إلينا كثير من عظماء الأطباء العرب حالات عالجوا فيها أمراضا بدنية عن طريق النفس، أو العكس. كذلك فقد وصلتنا أعمال نظرية، وأقوال فردية متفرقة عن الدور الذي يلعبه الاعتقاد في عمليات العلاج(٣١). ففي القرن التاسع الميلادي كتب الطبيب النصراني قسطا بن لوقا كتابا ناقش فيه قيمة وتأثير العزائم والأحجبة، حيث يقول في كتابه هذا إن تأثير العزائم والأحجبة يعتمد في جوهره على اعتقاد المرء، وقوة تخيله، وليس على حقيقة كشف الغيب أو التنجيم، وإن كان لا يُنكر ذلك كلية(٣٢).

وقد أشار الرازي، وأطباء عرب آخرون، إلى أن عنصر الاعتقاد كثيرا ما يستغله الدجالون وأدعياء الطب بمهارة ونجاح. واستخدم الرازي نفسه التفاعل بين الجسم والنفس، وذلك مثلا في علاج ظواهر الشلل عن طريق إثارة خوف مفاجئ، أي أنه كان نوعا من العلاج بالصدمات، وهو أسلوب استخدمه أطباء آخرون في ذلك العصر بطريقة مشابهة.

وعلى العكس من ذلك عالج العرب الأمراض النفسية، وخاصة الماليخوليا، عن طريق البدن، أي بالأدوية. ولكن باستخدام الموسيقى بجانب ذلك، وذلك انطلاقا من النظرية القائلة بأن كل مقام من مقامات الموسيقى العربية الاثنى عشر يؤثر بطريقة معينة على أخلاط الجسم، وكيفياته، بحيث يبدو أنه من الممكن، عن طريق العلاج بالموسيقى، تقليل زيادة المرة السوداء التي كانت تعتبر سبب الماليخوليا في النظرية القديمة(٣٤).

وسنذكر فيما يلي باختصار اثنين من أهم الاكتشافات التي حققها المسلمون في العصور الوسطى في مجال الطب، وخاصة أن الأمر يتعلق في هاتين الحالتين بتصحيح لآراء جالينوس أيضا. كان جالينوس قد اعتبر عظم الفك الأسفل للإنسان مكونا من جزئين. ولكن الطبيب، وعالم الطبيعة عبد اللطيف البغدادي (توفي سنة ١٢٣٣م) اكتشف من خلال دراسات قام بها على الهياكل العظمية المتراكمة بالقرب من القاهرة، أن الأمر يتعلق في حقيقة الأمر بعظم واحد «ليس فيه مفصل، ولا درز (= خط الاتصال بين عظام الجمجمة)». بيد أن الملفت للنظر أنه فحص أكثر من ألفي جمجمة، قبل أن يتأكد أن جالينوس لابد وأن يكون مخطئا في هذه المسألة(٣٥). والمبدأ الذي سجله البغدادي في هذا الموضع: «إن الحس أقوى دليلا من آراء جالينوس» يتفق بالمناسبة تماما مع آراء جالينوس. وكما نستنتج من سيرة جالينوس العربية عند ابن أبي أصيبعة، فقد كان جالينوس يتبع هذا المبدأ مع أساتذته أيضا(٣٦). ولكن يبدو أن الأطباء العرب لم يستخدموا هذا المبدأ، إلا نادرا. كذلك فقد أدى تحريم تشريح الجثث إلى تضييق مجال استخدامه.

ونذكر أخيرا أشهر اكتشاف للطب العربي في ذلك الوقت، وهو الوصف القريب من الصحة للدورة الدموية الصغرى الذي أورده ابن النفيس (توفي سنة ١٢٨٨م) في شرحه لكتاب ابن سينا في التشريح، المسمى «شرح تشريح القانون». فبينما كان جالينوس يرى أن الدم ينفذ من التجويف الأيمن للقلب إلى تجويفه الأيسر، استنتج ابن النفيس مما كان معروفا لديه عن انفصال تجويفي القلب بغشاء مصمت، أن الدم ينفذ من التجويف الأيمن للقلب إلى الرئة، حيث يتصفى هناك، ثم ينفذ من هناك إلى التجويف الأيسر للقلب(٣٧). ولكن يبدو أن هذين الاكتشافين سرعان ما طواهما النسيان، ولم يتم التذكير بهما، إلا من خلال الدراسات الأوروبية.

وعندما يتحدث المرء عن إنجازات الطب العربي، فلابد من ذكر قطاع المستشفيات أيضا. فعلى الرغم من أن الحضارة الإسلامية لم تؤسس قطاع المستشفيات، كما يُدعى أحيانا - ذلك أن أكاديمية جنديسابور، التي تحدثنا عنها من قبل، كانت مقرونة بمستشفى (بيمارستان) من المرجح أنه كان بمثابة نموذج للمستشفيات الكبيرة الأولى التي أسسها العرب فيما بعد - ولكن من المحقق أن الحضارة الإسلامية كان لها إسهام عظيم في قطاع المستشفيات. ومما يستحق تنويها خاصا، أن الحكام المسلمين أسسوا عددا من المستشفيات نذورا وتقربا إلى الله(٣٨).

٣

ولكن ماذا عن موقف الإسلام من الطب؟

إذا صرفنا النظر هنا عن مؤيدي الطب وأنصاره الذين كانوا بالطبع موجودين أيضا، وخاصة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وكانوا يتمتعون بعقلية متفتحة جدا، واقتصرنا على تحفظات الأوساط الدينية واعتراضاتها، فينبغي أن نتحدث بصورة رئيسية عن ثلاث نقاط: إن طب جالينوس كان يبدو لهذه الأوساط الدينية مريبا، يمكن الطعن فيه للأسباب التالية: ١- لأن أصله وثني؛ ٢- لأنه يُمارَس من قِبَل غير المسلمين؛ ٣- لأنه يُمثل تدخلا في قضاء الله وقدره.

فالارتياب في الأصل الوثني للعلوم اليونانية قد ظهر في الأوساط المتدينة في عصر مبكر جدا. وكان هذا الارتياب صادرا عن هؤلاء الذين لم يستمدوا براهينهم في المقام الأول والأخير من خلال المنهج التجريبي، والإدراك العقلي المبني على التجربة، ولكن من الحكمة الإلهية المنزلة. وكان شعار «مَن تمنطق، تزندق» كثيرا ما يُسمع في هذه الأوساط. ولم يكن هذا الشعار موجها ضد أرسطو فحسب - الذي غالبا ما تشير إليه المراجع العربية بـ «صاحب المنطق» - ولكن على الأقل بنفس القدر ضد طب جالينوس أيضا. وكان الطب الجالينوسي يقوم على الاستدلال على تطورات المرض الشخصية، واستنباط العلاج الشخصي من القوانين العامة، وبواسطة الاستنتاجات المنطقية. ولهذا السبب فرض جالينوس على الطبيب دراسة المنطق والفلسفة بصفة عامة، كما أنه وضع بنفسه عدة مصنفات عن المنطق(٤٠).

ويبدو أن ارتياب المتدينين قد امتد أيضا إلى مسألة نقل الطب اليوناني وروايته، ذلك أن نقلة الطب اليوناني - باعتبارهم

كفرة - لم يكونوا بالطبع ثقات مثل نقلة الحديث النبوي الشريف من المسلمين. ويشبه ذلك من حيث طريقة التفكير، معارضة الأوساط الدينية للطب، طالما أنه يمارس من قبل غير المسلمين، أي المسيحيين واليهود في المقام الأول. وقد امتدت محاولات الأوساط الدينية لترغيب المرضى عن الأطباء غير المسلمين، من تحذيرات بعدم قبول وصفهم النبيذ، أو أي أشياء أخرى محرمة في الشريعة، كدواء، إلى الاتهام المعلن صراحة بأنهم يريدون قتل المسلمين(٤١). بيد أن هذه الاعتراضات(٤٢) ظلت محصورة في الأوساط الدينية، طالما أن أهل الوجاهة، وأصحاب الرئاسات، كانوا يلجأون بلا تردد إلى الأطباء اليهود والنصارى، ويتعالجون بطب جالينوس.

وينطبق نفس الشئ على الاعتراض الثالث الذي تمثل في التشكيك في الطب برمته، بصرف النظر عن أصله الوثني، والانتماء الديني لمَن يمارسه. وكان هؤلاء المعارضون يقولون إن العلاج الطبي يعتبر تدخلا غير مشروع في قضاء الله وقدره. وكان هذا الاستغناء المقصود عن العلاج الطبي يُمارَس بصورة خاصة باسم فضيلة مستحسنة جدا في واقع الأمر، وهي فضيلة التوكل على الله. فالتوكل هو السلوك الذي يوصي القرآنُ المسلمين به بصفة خاصة(٤٣). وقد تطور التفسير المغالى فيه لهذه الفضيلة بين أوساط المتصوفة من المسلمين: فالتوكل يعني استسلام المرء لتدبير الله تعالى، مثل الميت بين يدي الغاسل(٤٤).

وقد عالج الغزالي - أكثر علماء الدين نفوذا في الإسلام - مسألة التوكل في أهم مؤلفاته: «إحياء علوم الدين»، وهو كتاب يمكن مقارنته بعمل توماس الاكويني: "Summa theologiae". ويُفرق الغزالي في كتابه هذا بين ثلاثة أنواع من الأسباب المزيلة للمرض:

١- مقطوع به، أي أن أثره مؤكد، مثل الخبز المزيل لضرر الجوع؛

٢- مظنون، كشرب الدواء المسهل، وسائر أبواب الطب؛

٣- موهوم، كالرقى وأعمال السحر.

ويرى الغزالي وجوب استخدام الأسباب المقطوع بها، حتى بالنسبة للمتوكلين. فلا يجوز أن يذهب المرء إلى البادية، وينتظر حتى يضع الله أمامه وعاء من الطعام، حيث يعتبر بعض الصوفية ذلك أعلى درجات الاختبار. أما استعمال النوع الثاني، وخاصة الأدوية الطبية، فيحلله الغزالي، ولكن بتحفظ. وفي مقابل ذلك فاستخدام الصنف الثالث، أي الرقى وأعمال السحر، ممنوع؛ وهو موقف كان قد بدأ يتغير في عصر الغزالي لصالح السحر الحلال، أي السحر الديني.

بيد أن الغزالي يقر بأن المرض يلعب دورا في التكفير عن ذنوب المرء، فقد قال الرسول (ص): «ما من مصيبة تصيب المسلم، إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها». إذن فترك التداوي لهذا السبب مسموح به، بل إنه يستحق المدح والتقدير. ويقول الغزالي في تناقض واضح لتقسيمه السابق لأنواع الأسباب المزيلة للمرض إنه لا ينبغي على المرء أن يثق في تأثير هذه الأسباب، ولكن في أصلها فقط، أي في محدث جميع الأحداث: البارئ تعالى(٤٥).

وأكثر من مذهبه في التوكل، فقد سحب الغزالي البساط من تحت أقدام علمي الطب والطبيعة، بإنكاره لوجود قانون سببية محسوس في الطبيعة. فمَن يُرجع حركة السفينة إلى الأمواج، وحركة الأمواج إلى الريح، فهو - كما يرى الغزالي - يُصبح مشركا بالله، بإثباته أسبابا أخري بجانب الله تعالى، المسبب الأول(٤٦).

إن الغزالي الذي هاجم في عملين من تصنيفه أيضا فلسفة أرسطو، وروادها المسلمين ، بشدة، وساهم بذلك في انهيار الأرسطاطليسية الإسلامية وتدهورها، يمثل نقطة تحول في الساحة الفكرية. فأهل السنة كانوا في طريقهم لتعزيز مراكزهم، وبعد ذلك بوقت قصير انحصر الفكر المتحرر، ولم يعد مسموحا به. وكانت نشأة الطب النبوي ظاهرة أخرى من ظواهر هذا التحول في الساحة الفكرية.

٤

كان سبب تطور الطب النبوي إذن ذا طبيعة دينية. وكان الأمرُ يتعلق بتأسيس علم طب مقبول من الناحية الدينية للمسلم المتدين الذي يعاني من تأنيب الضمير لاستخدامه طبا ذا أصل وثني، ويُمارَس من قِبَل غير المسلمين. ولكن من أين ينبغي أن يأتي مثل هذا الطب المقبول دينيا؟ فالقرآن لم يتحدث عن الأمور الطبية، إذا استثنينا تحديده بعضَ التسهيلات للمرضى في ممارسة العبادات(٤٧)، وأنه ذكر العسل مرة بأن فيه شفاء للناس(٤٨).

ولكن في مقابل ذلك نقل عن الرسول (ص) بعض النصائح الطبية. وتمثل أقوال الرسول (ص)، وسلوكه، مصدرا هاما مكملا للقرآن بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه سلوك المسلم. ومن هنا فقد تم تجميع الأحاديث النبوية الشريفة بالآلاف في القرن التاسع الميلادي، حيث دُونت في جوامع ضخمة. وتكاد هذه الأحاديث النبوية تتمتع بنفس مكانة القرآن، كما أنها ساهمت في تشكيل الحياة الإسلامية، وجوهرها، والإنسان المسلم، وثقافته، بصورة حاسمة جدا. ويحتوي أهم هذه الجوامع، صحيح البخاري، على ٣٤٥٠ حديثا، منها ثمانون حديثا طبيا، مقسمة على بابين هما: كتاب المرضى، وكتاب الطب(٤٩). وبجانب بعض المسائل الدينية، ككفارة المرض، ومسائل تتعلق بالآداب الاجتماعية، كالسؤال عما إذا كان مسموحا للنساء بعيادة الرجال ومداواتهم، أم لا، يوجد عدد من النصائح الطبية البحتة. ومما يبرهن على صحة هذه الأحاديث أنها مصاغة بأسلوب قديم. وكما يقول ابن خلدون، السالف ذكره، في مقدمته للتاريخ، فلم يكن الطب النبوي سوى عادات وتقاليد بدوية(٥٠).

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

قال الرسول (ص): «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهي أمتي عن الكي»(٥١). وفي حديث آخر يوصي الرسول (ص) بتناول الحبة السوداء، حيث يقول: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام (= الموت)»(٥٢). ونصح الرسول (ص) رجلين جاءا إلى المدينة، وكانا يُعانيان من مرض في المعدة، بأن يشربا ألبان الإبل وأبوالها. ففعلا ذلك، وصح بدناهما(٥٣). ومن الأدوية الأخرى التي أوصى بها الرسول (ص) الإثمد، فهو يُساعد على نمو الشعر، ويُقوي النظر(٥٤). وأوصى الرسول باستخدام القسط الهندي الذي فيه سبعة أشفية، منها استخدامه في علاج العُذرة (داء في الحلق) حيث يُستعط (يؤخذ عن طريق الأنف)، أو يُقطر في الأذن للعلاج من ذات الجنب(٥٥)، إلى آخره.

وبجانب هذه الأدوية التي كان بعضها غير مضر، وبعضها الآخر مشكوك فيه، كان هناك السحر الديني، الرقى، أي السحر الطبي، وذلك في صورة تعاويذ مقرونة بحركات سحرية. ومثل هذه التعاويذ نجدها على سبيل المثال في السورتين الآخرتين في القرآن. ففي سورة الفلق يُستعاذ بالله من «النفاثات في العقد»، أي السواحر.

ويحمي الرقى، أي السحر الطبي، من العين التي تتهدد المرء في كل مكان، وتسبب الأمراض أيضا. كذلك يقي الرقى من الحيات والعقارب، ومن السحر بصورة عامة(٥٦).

ومن ذلك أيضا الحديث النبوي الشريف الذي يوصي بتناول سبع تمرات من العجوة كل صباح، فهذا يحمي من السم والسحر أثناء اليوم(٥٧). وقد أرهقت الأحاديث النبوية التي ورد فيها إنكار العدوى العلماءَ المسلمين المتأخرين بصورة خاصة. فأوبئة الطاعون كانت تعاود مهاجمة العالم الإسلامي بكثرة لم يمكن معها تجاهل ظاهرة العدوى. ولكن حتى في القرن التاسع عشر كان يجب على طبيب عربي أن يُعيدَ بحث المناقشة الدينية برمتها عن العدوى، بما في ذلك الأحاديث النبوية المنقولة عن هذه القضية، وذلك في فتوى مرفوعة إلى الباب العالي في القسطنطينية عن إدخال الحجر الصحي، ليستنتج بعد تقرير طويل أنه عند التأويل الصحيح للنصوص الدينية، لا يوجد ما يمنع من إدخال هذا الإجراء (= الحجر الصحي) الذي يستخدمه الفرنجة بنجاح منذ وقت طويل(٥٩).

ما هي المؤثرات الأخرى التي أحدثها الطب النبوي؟

في تطور امتد بالطبع لعدة قرون استطاع الطب النبوي أن يُنحي طب جالينوس جزئيا، وأن يخترقه جزئيا، حيث تحول النظام الذي كان فيما مضى قائما على البراهين العقلية، والإيمان بقانون سببية يحكم الطبيعة، إلى طب إسلامي ممزوج بالسحر. وليسمح لي القارئ أن أوضح مرحل هذا التطور من خلال عدة أمثلة.

ففي القرن التاسع الميلادي كان أحمد بن حنبل، مؤسس رابع المدارس الفقهية وأكثرها تشددا، قد حلل العلاج الديني بالسيمياء (علم أسرار الحروف)، وذلك بالطريقة التي مازال هذا العلاج يُمارس بها في العالم الإسلامي حتى يومنا هذا(٦٠). (هذا مع ملاحظة أن الغرب المسيحي كان به أيضا ممارسات مشابهة، كما ورد في رواية جوتهيلف Gotthelf المسماة: "Annebaebi Jowaeger").

ومن بداية القرن الثاني عشر بدأ الطب النبوي يتغلغل في الطب العلمي، وظهرت في مصنفات بعض المؤلفين - الذين لم يكونوا في العادة أطباء، بل كانوا محدثين، وكتاب موسوعيين - فصول لم يكن من الممكن أن تظهر من قبل في أي عمل جاد عن طب جالينوس. وذلك مثل عناوين الفصول ٥٨ - ٦٠ من كتاب طبي ألفه في القرن الثالث عشر الكاتب الموسوعي المعروف ابن الجوزي، حيث تقول عناوين هذه الفصول: «الرقى للمريض، والدعاء له، والدعاء لنفسه»، و «ما يُكتب للحمى

والأوجاع»، و«إصابة العين ورقيها»(٦١).
وبعد ذلك بقرنين من الزمان، أكد المصري السيوطي، وهو أيضا كاتب موسوعي معروف جدا، في كتاب له عن الطب النبوي، تطابق طب جالينوس والطب النبوي، أو بالأصح السحر الطبي، حيث يرى أن ترديد العزائم والتعاويذ، وحمل الأحجبة، هما وسيلة لحفظ الصحة بالاستعانة بالله، مثلها مثل العلاج الطبي (الجالينوسي) تماما(٦٢).
بيد أن أصحاب الطب النبوي المتعصبين لم يكتفوا بالمساواة بين الطب النبوي وطب جالينوس، بل أرادوا أن يجعلوا طب جالينوس تابعا للطب النبوي. ويظهر ذلك بوضوح من خلال عدد من الروايات التي يتخذ بعضها طابع النوادر والحكايات، إلا أن هذا لا يقلل على الإطلاق من قيمتها بالنسبة لتاريخ الحضارة.
وهكذا يُروى أن الحوارَ التالي قد جرى بين طبيب نصراني وأحد عمال هارون الرشيد المتدينين: سألَ الطبيبُ النصراني عاملَ الخليفة: ألا يوجد في كتابكم شئ عن الطب، فالعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان؟ فقال عامل الخليفة: بلى، فقد جمع الله الطب برمته في نصف آية قرآنية! فسأله الطبيب: وما هي؟ فقال العامل: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»(الأعراف ٣١). فسأل الطبيبُ العاملَ: ولكن لم يُنقل عن نبيكم شئ في الطب؟ فرد العامل قائلا: بلى، إنه صاغ الطب في كلمات سهلة بسيطة. فقال الطبيب النصراني: وما هي؟ فيذكر العامل حديثين شريفين معروفين عن الحمية والصحة: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء»، و«عودوا كل بدن ما اعتاد». فصاح الطبيب النصراني: «كتابكم ونبيكم يغنيان عن طب جالينوس»(٦٣). وفي رواية أخرى لنفس هذه الحكاية، يتأثر الطبيب جدا، لدرجة أنه يعلن إسلامه فورا(٦٤).
وهناك قصة أخرى مشابهة رويت عن طبيب مسلم، حيث شك في صحة حديث طبي للرسول (ص)، وهو حديث لم يرد ذكره في جوامع الحديث المعروفة، بأن مَن يفصد يوم السبت يصاب بالجذام. ففصد يوم سبت، وأصيب بالجذام في الحال. ولم يشفَ من هذا المرض، إلا بعد أن اعتذر للرسول (ص) الذي ظهر له في أحد الأحلام(٦٥).
وتوضح مثل هذه الروايات ما حدث بطريقة مقنعة وجلية: لقد تم خلع العقل عن عرشه، وحل الدين محله، وتم إخضاع العلوم القديمة للقرآن والتراث النبوي. وتغلب الطب النبوي على طابعه الديني المبكر، وتسلح بالعلم الجالينوسي، وشيئا فشيئا أصبح قادرا على منافسة طب جالينوس. ولا يمكن عرض مراحل هذا التطور بالتفصيل هنا، كما أن ذلك مازال بحاجة إلى بحث ودراسة. ولكن النتيجة الحتمية لهذا التطور يمكن أن توضحها كلمات الرحالة الألماني جورج إيبرس Georg Ebers الذي تنقل بين دول المشرق، وزار القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ووصف المارستان (= المستشفى) المنصوري الذي كان فيما مضى من أروع المراكز الطبية في العصور الوسطى، حيث يقول:
«يقع المارستان المعروف باسمه (المنصور قلاون) في شمال شرق القاهرة، بالقرب من سوق النحاسين، الذين يستطيع المرء أن يراهم وهم يعملون في داخل الايوانات المهجورة لهذا البناء الهام. لقد تدهور حال هذا المارستان، وتحول إلى خرائب كريهة. ولم ينجُ من الخراب، إلا قبة مؤسس هذا المارستان، وهي بناء جميل مهيب، كان يعمل فيها خمسون قارئا فيما مضى. ويأتي المرضى إلى هذه القبة، لزيارة الأثر التذكاري للسلطان، حيث يعالجون الصداع بلمس عمامته، ويعالجون حمى الغب بلمس قفطانه. وعادة ما يجتمع هناك أيام الخميس النساء والأمهات بأطفالهن. فيتضرع بعضهن إلى اللهِ أمام المحراب الحجري الرائع أن يهبهن نسلا من الذكور، ويرجو بعضهن الآخر البركة لأولادهن. ومَن يتمكن من مراقبة النساء في تضرعهن أمام هذا المكان المقدس، سيرى مشهدا في غاية الغرابة: فهن يخلعن ملابسهن، ويغطين وجوههن بأيديهن، ويقفزن من أحد جانبي المحراب إلى الجانب الآخر، حتى يسقطن على الأرض من الأعياء. ولا يندر أن يراهن المرء بعد ذلك منطرحات على البلاط لمدة طويلة، قبل أن يفقن من إغمائهن، ويستطعن الوقوف مرة أخرى»(٦٧).
ولكن ينبغي أن أشير إلى نقطتين أود أن أتحاشى سوء الفهم فيهما: ليس هدفي أن أصور الإسلام ككل على أنه عدو للعلم؛ كما أني لا أحمل الطب النبوي وحده مسؤولية انهيار طب جالينوس. فكل ديانة تحتوي على عناصر مختلفة تجاه الحضارة. وقد أثبت الإسلام أنه ليس بالضرورة عدوا للعلم، وذلك في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية الذي استمر لأكثر من خمسة قرون على الأقل. بيد أن هناك الكثير من الدلائل المستقاة من المراجع التاريخية، يُستنتج منها بوضوح أن هذا الاتجاه كان مغروسا فيه من البداية.
نعم ينبغي أن نعترف أن العلوم في الغرب المسيحي أيضا كانت حتى قرون قليلة خلت تحت وصاية الكنيسة، ولكن كان هناك فارق ظهر مبكرا، وهو أن العالم الإسلامي لم يكن فيه جامعات بالمعنى الحقيقي للكلمة، أيْ مؤسسات تعليمية غير دينية،

لمختلف العلوم، بما في ذلك العلوم الدنيوية. ولم توجد أي مؤسسات تعليمية، إلا المعاهد الدينية - التي كانت تسمى مدارسَ في ذلك الوقت - المرتبطة دائما بالمساجد، والتي لم تُدرّس فيها العلوم الدنيوية، إلا في حالات استثنائية. وكان الطب يدرس في المستشفيات، وفي حلقات خاصة في بيوت بعض الوجهاء من الأطباء.

أما فيما يتعلق بانهيار الطب الجالينوسي في العصر الذي تلى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، فهناك أسباب أخري غير الطب النبوي لابد من ذكرها. وأذكر هنا في المقام الأول الطابع النظري الشديد لنظرية الأخلاط من ناحية، والاتجاه المرتبط بذلك نحو الجمود العقائدي، من ناحية أخرى. فمجرد الشك مبدئيا في آراء جالينوس كان يُعتبر نوعا من التعدي على أساطين العلم، وهو ما لم يكن أي طبيب عربي يستطيع أن يسمح لنفسه به، كما أنه من المرجح أن ذلك لم يخطر ببال معظم الأطباء العرب(٦٨). كذلك فقد حال نقص المعدات الطبية المتقدمة، مثل الميكروسكوب؛ ومنع تشريح الجثث، دون ظهور مثل هذه الشكوك.

ولكني أعتقد أن الشئ الحاسم هو أن الحضارة الإسلامية برمتها كانت قد شهدت تحولا أساسيا بعد انقضاء عصر ازدهارها الذهبي، حيث اتخذت اتجاها إسلاميا مميزا، من نوع آخر. ولم يُمثل الطب النبوي، إلا جانبا واحدا من هذا الاتجاه الروحاني الذي فرض نفسه على العالم الإسلامي بعد انقضاء عصر ازدهار الحضارة الإسلامية. فقد ابتعد الفكر الإسلامي بصورة عامة ومقصودة عن العلوم الدنيوية، واتجه نحو العلوم الدينية، وكان أيضا تحولا من العقل إلى العاطفة. وفي هذا العصر الذي لم يأتِ بأي إنجازات علمية عظيمة جديدة، ازدهر الشعر، والرسم، وفن الخط، وفن العمارة، وعاشت هذه الفنون أحد أجمل عصور ازدهارها. ومن هنا فلا يمكن الحديث عن انهيار الحضارة الإسلامية وانحطاطها، بالتأكيد ليس في جميع الميادين، ولكن ما حدث كان مجرد تغير في الحياة العقلانية، والمناخ الفكري.

وكان مبدأ هذا التغير في الحياة العقلانية مخالفا لنموذج الترقي الأوروبي، فلم يكن الهدف هو التقدم، والحركة، والقلق الداخلي والخارجي، بل صار المطلوب هو الانسجام، والاتزان، والسكينة. ويبدو أن الاعتدال symmetria - باعتباره مثلا أعلي عند اليونان القدماء، حيث كان شعارا وفكرة أساسية في طب بقراط، ثم في أخلاق أرسطو - قد امتزج بنعمة السكينة المذكورة في القرآن، والتي ينعم الله بها على المؤمنين من عباده(٦٩).

وأصبحت الغاية المستهدفة هي أن يحيا الإنسان في انسجام مع الكون، وكان الطريق إلى هذا الانسجام يمر دينيا عبر التصوف، وعلميا عبر العلوم الخفية، وخاصة السحر، والكيمياء، والتنجيم. وكما أوضح العالم الألماني أولمان Ullmann في أعماله الرائدة، فلم تخلُ العلوم الإسلامية، حتى عند أعظم وأعقل ممثليها، من هذه العلوم الخفية. وقد بدأت العلوم الخفية تنمو بطريقة عشوائية، بعد انقضاء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وخاصة السحر الذي تحدثنا عن تداخله في الطب تحت عنوان الطب النبوي.

وفي النهاية نذكر ملاحظة أخيرة.

لقد طور عصرنا هذا وعيا جديدا، أو هو على الأقل قد بدأ عملية تغيير فكري، بعد إدارك أن العقل وحده لا يكفي في الطب، مَثل ذلك مَثل جميع العلوم التي لها علاقة بالإنسان، وتربيته، وصحته، وفنه، وسياسته.

فعامل «اللامعقول» (أي كل ما لا يدخل في نطاق إدارك العقل)، الذي يعتبر الدين جزءا منه، يلعب دورا هاما في هذا المجال، وهو عامل لا يمكن استبعاده من الطب بالذات. وهذا هو سبب النجاح الغريب الذي كثيرا ما يحققه أدعياء الطب، أو الممارسون للطب الشعبي، والمشعوذون؛ وكذلك العجز الغامض للعلاج بالطب المدرسي، في بعض الأحيان.

وقد كان جالينوس نفسه قد راعى عنصر الإيمان هذا، واستفاد منه أحيانا من الناحية العلاجية. ويذكر الكاتب العربي ابن أبي أصيبعة - المذكور أعلاه أكثر من مرة - في ترجمته الطويلة لجالينوس، والتي جمع مادتها من مصادر كثيرة، أن المعلم اليوناني كان يرسل المرضى الذين لا يستطيع معالجة آلامهم بطبه إلى هيكل اسقليبيوس، للعلاج بالطب الإلهي، حيث يقول جالينوس: «إن قياس الطب الإلهي إلى طبنا، كقياس طبنا إلى طب الطرقات»(٧٠). إنه قول جدير بالملاحظة، ويبدو كتصديق من جالينوس لتطور الطب النبوي. وبالفعل فإننا نجد نفس هذه العبارة - بعد إدخال التعديل اللازم عليها - في كتاب عن الطب النبوي من القرن الرابع عشر الميلادي، قد استشهدنا به هنا عدة مرات: «إن نسبة طب جالينوس إلى الطب النبوي، كنسبة طب العوام إلى طبه»(٧١).

والواقع أن هذا لم يكن سوى نتيجة لموقف عقائدي مترسخ في صميم الدين، بل نستطيع أن نقول إنها غريزة في النفس الإنسانية، وهي التي أدت إلى ظهور شئ مثل «العلم المسيحي» Christian Science في العالم المسيحي، في عصرنا هذا. ثم

أليس من منطق الإيمان أن يستخدم كل المسيحيين طريقة العلاج بوضع اليد، كما استخدمها المسيح؟ ولكن الحقيقة أن معظم المسيحيين يخشون من هذه العاقبة المحفوفة بالمخاطر، مثلما فضل الكثير من المسلمين الاعتماد على طب جالينوس، وتقبلوا نقد المتدينيين الموجود في كتب الطب النبوي بلا مبالاة.

هذا ويمكننا أن نقول - أيضا كمتوكلين على الله، وبحسب قول الغزالي - إنه على الرغم من أن الطب هو أحد الأسباب التي يعتبر أثرها ليس مؤكدا مثل الخبز المزيل لضرر الجوع، إلا أن أثره محتمل (مظنون). وبالتالي يمكن للمرء أن يستخدمه بلا خوف أو تردد، مع افتراض أن يظل مدركا أن التأثير الحادث في كل حالة فردية يعتمد على إرادة الله تعالى.

وهكذا يكاد الطب ينفرد من بين جميع العلوم الأخرى بكونه في ساحة الصراع بين المعقول واللامعقول، بين العقل والعقيدة. وأصبح مصير الطب في الإسلام يمثل مثالا مفيدا للتفاعل بين العوامل الدينية والثقافية.

الهوامش

(١) أنظر مثلا: أمين أسعد خير الله، الطب العربي، تعريب مصطفى أبي عز الدين، بيروت سنة ١٩٤٦؛ أو:
- أعمال المستشرقة الألمانية: Sigrid Hunke

(٢) أنظر جولدتسيهر، موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل؛ في عبد الرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دارالقلم، بيروت ١٩٨٠، ص ١٢٧

(٣) أنظر على سبيل المثال أعمال: O'Lacey، و De Leary، و Ullmann، و Klein-Franke

(٤) Sezgin سزكين، Geschichte des arabischen Schrifttums (= GAS), III, 174f.

(٥) عن مدينة جنديسابور، وأكاديميتها العلمية، أنظر المقال الخاص بها في: Encylopedia of Islam, Second Edition (= EI^2)

(٦) راجع الترجمة الانجليزية لمقدمة ابن خلدون، ترجمة فرانس روزنتال، بريتنستون ١٩٦٧، ج ٢، ص ٣٧٣ وما بعده.

(٧) نفسه، ج٢، ص ٣٥١؛ ٤٣٤

(٨) عن حنين بن اسحاق، راجع مقال: G. Strohmaier - في: EI^2

(٩) نشر هذه الرسالة، وترجمها، المستشرق برجشترسر. أنظر أيضا: Ullmann, Medizin im Islam (= MI) 35-68 - وكذلك: Sezgin III, 68-150

(١٠) MI, 115-119 und 205f.

(١١) MI, 25-35; GAS III, 23-47.

(١٢) MI, 71-76; GAS III, 64-68.

(١٣) MI, 257-263; GAS III, 58-60.

(١٤) MI, 84; GAS III, 152-154.

(١٥) MI, 86-87; GAS III, 168-170.

(١٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبعة المستشرق ميلر، كونيجزبرج والقاهرة ١٨٨٤، ج١، ص٧١؛ طبعة بيروت سنة ١٩٦٥، ص ١٠٩

(١٧) راجع: بيرجل: J. C. Buergel, Averroes "contra Galenum", 276-290

(١٨) أنظر: Erich Schoener, Das Viererschema in der antiken Humoralpathologie (Sudhoffs Archiv, Beiheft 4), Wiesbaden 1964

(١٩) أنظر عن أبي زكريا الرازي (توفي سنة ٩٢٥م): MI, 128-136; GAS III, 274-294

(٢٠) علي بن العباس المجوسي (توفي في نهاية القرن العاشر الميلادي)، راجع: MI, 140-146; GAS III, 320-322

(٢١) عن ابن سينا (توفي سنة ١٠٣٨م) راجع: MI, 152-156

(٢٢) عن أبي القاسم الزهراوي (توفي حوالي سنة ١٠٠٩م) انظر: MI, 149-151; GAS III, 323-325

(٢٣) راجع عن ابن رشد (توفي سنة ١١٩٨م): MI, 166-167

(٢٤) أنظر: Felix Klein-Franke, Vorlesungen ueber die Medizin im Islam (Sudhoffs Archiv, Beiheft 23), Wiesbaden 1982, S.106.

(٢٥) أنظر: MI, 158

(٢٦) راجع في ذلك: George Sarton, Introduction to the History of Science, 5 Bde., Baltimore 1927-1948.

(٢٧) أنظر: Caesar Dubler, Die "Materia Medica" unter den Muslimen des Mittelalters. In: Sudhoffs Archiv 43 (1959), 345.

(٢٨) أنظر: MI, 204

(٢٩) راجع: أبو زكريا الرازي، كتاب في الجدري والحصبة، نشرة المستشرق كارل أوبيتس (Karl Opitz)، لايبتزج ١٩١١، ص ١٤؛ أنظر أيضا: MI, 133

(٣٠) أنظر: Sarton I, 710

(٣١) راجع: J. Christoph Buergel, Psychsomatic Methods of Cures in the Islamic Middle Ages. In: Humaniora Islamica 1 (1973), 157-172.

(٣٢) أنظر: Lynn Thorndike, A History of Magic and Experimental Science During the First Thirteen Centuries of Our Era, London and New York 1923-1958, Bd.1, 652-657.

راجع أيضا: MI, 127

(٣٣) أنظر: J. Christoph Buergel, Der Mufarrih an-Nafs (Proceedings of the VIth Congress of Arabic and Islamic Studies - Kungl. Vitterhets Historie och Antikvitets Akademien - Filologisk-filosofiska serien 15), Stockholm 1972, 201-212.

(٣٤) أنظر: J. Christoph Buergel, The Feather of Simurgh, New York University Press, 1988, S. 89ff.

(٣٥) أنظر: J. C. Buergel, Averroes "contra Galenum", 279f.

(٣٦) نقل ابن أبي أصيبعة قول جالينوس إنه «كان لا يقنع من علم الأشياء بالتقليد، دون المباشرة». ويقول جالينوس في موضع آخر: «فأما أنا، فإني أقول، ولا أكذب، إلا ما قد عاينت بنفسي، وجربت وحدي في طول الزمان، والله يشهد لي أني لست أكذب فيما أقص عليكم». راجع ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبعة مويلر، ج١، ص ٨٢-٨٣

(٣٧) أنظر: MI, 175

(٣٨) المرجع الرئيسي عن المستشفيات في الإسلام مازال هو كتاب: Ahmad Issa-Bey, Histoire des Bimaristans (hopitaux) a l'époque Islamique. In: Comptes Rendus du Congres International de Médecine et d'Hygiene Tropique, vol.2, Kairo 1929, 81-209.

(٣٩) أنظر جولدتسيهر، موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل، ص ١٤٧

(٤٠) راجع: Felix Klein-Franke, Vorlesungen ueber die Medizin im Islam, S. 87f.

(٤١) أنظر على سبيل المثال مخطوطة من القرن الرابع عشر للسرمري، شفاء الآلام في طب الإسلام. (Mskr. Fatih 3584, fol. 12b)

(٤٢) عالجت هذه المسألة بإسهاب في فصل أسلمة الطب: Islamisierung der Medizin في رسالتي غير المنشورة للأستاذية: Studien zum aerztlichen Leben und Denken im arabischen Mittelalter, Goettingen 1968.

(٤٣) أنظر مثلا سورة آل عمران، ١٢٢: «وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

(٤٤) راجع: Benedikt Reinert, Die Lehre vom tawakkul in der klassischen Sufik, Berlin 1968, S. 90-100; 207-216.

(٤٥) أنظر ترجمة: Hans Wehr الألمانية لفصل التوحيد والتوكل من كتاب الغزالي إحياء علوم الدين، Halle 1940, 50ff

(٤٦) الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة ١٣٨٧/١٩٦٨، ج٤، ص٣٠٧

(٤٧) راجع الآيات التالية: البقرة ١٨٤-١٨٥؛ البقرة ١٩٦؛ النساء ٤٣؛ النساء ١٠٢؛ المائدة ٦؛ التوبة ٩١؛ النور ٦١؛ الفتح ١٧؛ المزمل ٢٠

(٤٨) راجع سورة النحل ٦٩

(٤٩) أنظر صحيح البخاري، القاهرة ١٣٧٦/١٩٥٦، ج٧، كتاب المرضى ص ٩٩-١٠٦؛ كتاب الطب ١٠٦-١٢١

(٥٠) راجع ترجمة Franz Rosenthal الانجليزية لمقدمة ابن خلدون، Princeton 1967، ج ٣، ص ١٥٠

(٥١) صحيح البخاري، كتاب الطب، ٣

(٥٢) نفسه، ٧

(٥٣) نفسه، ٥-٦

(٥٤) نفسه، ١٨

(٥٥) نفسه، ٩-١٠

(٥٦) نفسه، ٣٢ وما بعده.

(٥٧) نفسه، ٥٢ وما بعده.

(٥٨) نفسه، ١٩، ٥٣-٥٤

(٥٩) بناء على دراسات شخصية للمخطوطات الطبية في استانبول.

(٦٠) أنظر: Cyril Elgood, Tibb ul-Nabbi or Medicin of the Prophet. In: Osiris 14 (1962), 155.

(٦١) راجع: Albert Dietrich, Medicinalia Arabica. Studien ueber arabische medizinische Handschriften in tuerkischen und syrischen Bibliotheken, Goettingen 1966, S. 112.

(٦٢) راجع: Elgood, S. 154

(٦٣) أنظر مقدمة المخطوطة: Nuruosmaniye 4546 - وهي مخطوطة عن الطب النبوي لمؤلف اسمه: عمر بن خضر الصوفي.

(٦٤) راجع: Albert Dietrich, S. 118f.

(٦٥) أنظر: Peter Bachmann, Zum Medizin-Kapitel des البركة von الحبشي. In: Medizinhistorisches Buches Journal (1968), 33.

(٦٦) في نهاية القرن الخامس عشر أهدى الطبيب عطفي المرزباني الذي كان يعمل في السراي في القسطنطينية كتابه عن الطب النبوي: «روض الإنسان في تدبير الأبدان» للسلطان العثماني بيزيد الثاني. راجع: بروكلمان (الأصل الألماني)، GAL, S II, 639

(٦٧) لم أتمكن من الحصول على الأصل الألماني لهذا النص. راجع الترجمة الفرنسية في: Issa-Bey. وانظر أيضا: E.W. Lane, Cairo Fifty Years Ago, London 1896, 92-94.

(٦٨) إلا أنه يوجد أيضا منذ القرن السابع عشر علامات أولية على وصول بعض التصورات الأوروبية الطبية إلى العالم الإسلامي، مثل مذهب Paracelsus المبني على الملح، والزئبق، والكبريت. راجع: MI, 182f.

(٦٩) سورة الفتح ٤

(٧٠) أنظر ابن أبي أصيبعة، طبعة ميلر، ج١، ص ١٤؛ طبعة بيروت ص ٣٠

(٧١) راجع: Dietrich, S. 117

تمت الترجمة بحمد الله وفضله في يوم
الأحد الموافق ١٩٩٣/١١/٧
ثابت عيد
زيورخ